مشكلات المرأة في الفكر العربي / دراسة فلسفية نقدية

الدكتور علي حسين الجابري
أستاذ الفلسفة في قسم الفلسفة في كلية الآداب / جامعة بغداد

الدكتورة فضيلة عباس مطلك
مدرسة الفلسفة في قسم الفلسفة في كلية الآداب / جامعة بغداد

المقدمة

لا نظن ان مستقبل الفكر العربي سينفصل عن دور المرأة العربية في مسيرة المجتمع ، مهما كان واقع ذلك التغير ، تطورا ام تقدما ام نهضة ، ، فللمرأة أثر في تلك المسيرة ، يكاد يكمل أثر الرجل ، و من غير المعقول ، ماضيا و حاضرا و مستقبلا ، ان يتصور باحث ما نهوضا لمجتمعه تحقق او سيتحقق من غير احداث تغير ايجابي لصالح المرأة يحررها ، انسانيا ، من ظروف التخلف و الانحطاط و الاستلاب دون ان ينفصل هذا التحرر عن تطور المجتمع و تفجير وعي رجاله و نسائه بضرورات هذا التغير يرتقي الى الاحسن بفضل ما يوفره النظام السياسي و الاجتماعي و الفكري من ، حيز ، تحتله المرأة في بُنية المجتمع وانظمته و كياناته الفكرية والسياسية والاقتصادية والنفسية و يقوم على احترام متبادل للادوار و جهد مشترك من ، المجتمع رجاله و نسائه ، ومن القاعدة والقمة و من الفكر و التطبيق ، لتحقيق الغايات المشتركة .

و لما كان ، المستقبل ، غير منفصل عن الماضي [١] ، و لا عن الحاضر ، ولا بد ان يكون متفوقا على الاثنين ، لكي يتيح فرصة افضل ، و وضع احسن للجميع ، فأن ذلك مرهون بطبيعة الاجوبة الفكرية العربية ، التي وجدناها متفاوتة

بتفاوت كناهج المفكرين و منطلقاتهم الفلسفية [٢] فيما يتصل بالمرأة و مشكلاتها و كيفية حلها لاسيما في اطار العقلانية العربية النقدية التي نريدها وسيلة لمجتمع عربي متحرر بنسائه و رجاله ، يقوم على فكرة مدنية يطمئن فيها الانسان على كرامته الانسانية ، و يعترف بالقاعدة الفلسفية القائلة [ان قيمة الانسان ، رجلا كان أم امرأة ، تقاس بمقدار العطاء الذي يقدمه لمجتمعه ولمستقبله انطلاقا من قيمة الحرية المسؤولة والاعتراف المتبادل بالحقوق و الواجبات] . فكيف نظر الفكر الفلسفي العربي الحديث و المعاصر الى هذه المشكلة و غيرها هذا جوهر هذه الدراسة (المتواضعة) مهدنا لها بعرض سريع لمكانة المرأة في التراث الفلسفي وصولا الى زماننا هذا ، معتمدين على اختصاصين (فلسفة الاخلاق) و (فلسفة الحضارة) و في هدى الشعار الفلسفي المطروح ألآن أمام الباحثين العرب [مستقبل الفكر الفلسفي العربي في عالم متغير] .

مكانة المرأة في الفكر الفلسفي :

شهد الفكر القديم و اليوناني و الوسيط و الاسلامي حضورا لمكانة المرأة نوجزه بما يلي :

(١) احتلت المرأة في حضارة وادي الرافدين مكانة مزموقة حيث كانت ملكة (الملكة كوبابا) و يعني اسمها بالسومرية الآلهة بابا المقدسة وحكمت ما يقرب من ثلاثين عام في حدود (٢٤٢٠ ق .م) و لكن قائمة الملوك السومرية تخصص لها مدة اطول تقدر بمائة سنة كما وانها تنحدر من أصل ملكي مع انها كانت تمتلك حانوتا ، و لكنها استطاعت تعزيز كيانها السياسي و الاقتصادي لمدينة كيش ، اما انخيدو انا ابنة سرجون الاكدي (٢٧٠٠-٢٣١٦ ق.م) فأشتهرت كأول أميرة تشغل مركز الكاهنة العليا للاله ننس في أور و لم يكن العمل الديني مقتصرا على مدينة اور بل كان يشمل المدن الاخرى التي حظيت فيها المرأة بموقع فكري او ديني او سياسي أو قانوني [٣] ، وهناك امثلة كثيرة على ذلك ، أمثال ذلك ابنة الملك الاكدي نرام سن (٢٢٩١ - ٢٢٥٥ ق. م) و هي كاهنة عظمى نصبها

والدها هذه المكانة خلفا لعمتها و هذه الحالة لا تقتصر على زوجات الملوك وبناتهم و انما أمتدت الى المرأة في المجتمع حيث وجد في مجال التعليم كاتبات تدوين في السجلات المدرسية دونت اسماء هن ، كما و ان الاكتشافات الآثارية تشير الى كثرة من النساء المتعلمات في العصور البابلية و من يتمتعن بمكانة رفيعة في المجتمع و نشاطاته ، و اذا أخذنا برأي المفكرين بأن للعراقيين القدماء فلسفة فأن هذه الفلسفة امتازت بأهتمامها بشؤون المجتمع أي أنها فلسفة عملية تعاملت مع المجتمع بعدالة و أعطت لكل فرد من افراده حقه سواء كان رجلا أم امرأة و هذا ما أكده الفارابي [١] ، صحيح ان أسماء كثيرة لفلاسفة عراقيين قدماء قد وردت في الوثائق الاثرية ، لكن مكانة المرأة على صعيد الفكر لا تتجلى في التشريعات و الوصايا فقط بل تمثلت بنماذج رائعة لنسوة وقفن مواقف عقلانية تليق بالمرأة ، مثل ننسن ، ام جلجامش و سدوري صاحبة الحانوت، وهي تدعو الى فلسفة اللذة تحت شعار [عش ليومك] . و شقيقة تموز التي كانت أنموذجا للتضحية و الفداء ، و غيرهن كثيرات مع ذلك تبقى (اشفغني) مثالا رائعا للمرأة التي وقفت الى جانب الحكمة دفاعا عن زوجها (احيقار) حكيم آشور في محنته (ق ٧ ق. م) . بل يكفي احتراما للمرأة في الفكر العراقي القديم ظاهرتان :

الاولى : نظرية الولادات في فلسفة الوجود العراقي القديم التي تقوم على قاعدة تقول ان كل موجود لابد ان يسبقه عاملان متكاملان هما (الذكر و الانثى) .

الثانية : عبادة الانثى [٥] .

(٢) وننتقل الى حضارة الصين حيث الفكر الفلسفي منتشرا [٦] انتشارا واسعا حين أصبحت تعاليم الفيلسوف كونفوشيوس عمل لحياة المجتمع و اعتبر كمصلح عظيم في (٥٥١ - ٤٧٨ ق. م) ، حيث وضع في الصين نظاما حدد فيه العلاقة بين أبناء المجتمع محاولا نشر العدالة و المساواة فيما بينهم و ان كان محدودا ضمن فئات معينة فكانت المرأة تتعلم الموسيقى و الشعر و الاداب في بيتها و ليس كما هو الحال في وادي الرافدين بل الاكثر من ذلك ان المرأة في الحقبة التي

سبقت كونفوشيوس كانت اكثر حرية في مجال العمل و هذا الحال شمل اليابان ايضا بعد ان أنتشرت فيها الكونفوشيوسية حيث كانت المرأة قبلها مهددة في حريتها و مكانتها في المجتمع و كانت حبيسة البيت و لا حول لها و لا شخصية [٧] .

(٣) أما الحضارة المصرية القديمة فمنحت المرأة مواقع متقدمة بفضل الوضع الذي كانت تتميز به داخل الاسرة عن الزواج الاحادي . تبدو الاسرة المصرية و كأنها تحمل أثر عادات قديمة كانت تمنح المرأة مكانة مرموقة فالنسب الاموي كان يوضع على قدم المساواة مع النسب الابوي ، و كان الولد ملزما بتقديم الطقوس المأتمية لأمه تماما كما كان يفعل لابيه ، وهذا أمر نادر لدى الشعوب القديمة [٨] وعلى الرغم من الحرية التي يتمتع بها الملك بالزواج بأكثر من واحدة فكانت زوجة واحدة تتمتع بلقب الملكة العظمى مع الاعتراف للاخريات بالمشاركة في حياة البلاط و امتيازاتها اضافة الى الوضع القانوني الذي كانت تتمتع به المرأة في تدبير املاكها الخاصة و كان في وسعها ان تقسم اليمين و أن تكون الاسرة في غياب الرجل ولكنها رغم ذلك كله لم تتمتع بمجال واسع من التعليم كما هو الحال عند زميلاتها في وادي الرافدين .

(٤) أما عن وضع المرأة في اليونان فكانت المرأة في فجر الحضارة اليونانية أفضل من وضع المرأة لاحقا . أما المرأة الهيلنية في تراث اليونان القديم فتظهره الالياذة و الاوديسة حين تعطيان صورة واضحة عن مكانة المرأة في قلب المجتمع العائلي فكانت قاعة حيفارون و في أحد أركان هذه القاعة كانت تجلس الملكة أريته مع زوجها لتترأس مجلس الاعيان و إليها رفع الضيف الغريب استرحامه لا لزوجها ، هذه الصورة تعطي توضيحا عن مكانة المرأة في المجتمع و لكن هذه المكانة تراجعت في نهاية الألف الاول قبل الميلاد بعد فترة قصيرة على حرب طروادة حيث أجتاحت شبه الجزيرة الاغريقية و كريت قبائل هندية اوربية فتراجعت مكانة المرأة بتأثير هذه السيطرة .

و قد تمتعت المرأة الاسبارطية بقسط كبير من الحرية إذ سمح لها بالاشتراك مع الرجل في السباقات الرياضية و الاختلاط مع الرجال و مشاهدتهم عند تأديتهم التمارين الرياضية المختلفة اما عن تربية الفتيات فأنها تشبه تربية الاولاد حيث يتلقين تدريبا على الالعاب المختلفة في الملاعب الخاصة بهن و يشاركن في المباريات التي تتسم بالسرعة و القوة كالمصارعة و الجري والساحة و رمي القرص و الرمح . و الغرض من ذلك تقوية أجسام الفتيات لينجبن أطفالا أقوياء لكي يصبحوا جنودا شجعانا يدافعون عن اسبارطة و بذلك أتسمت المرأة الاسبارطية بالشجاعة و حث الابناء و دفعهم للقتال و الموت من أجل الوطن . أما في أثينا فقد كانت مكانة المراة متخلفة و لم تحظى بالمكانة التي وجدناها للمرأة في أسبارطة . مع ذلك تحسن وضع المدرسة الفيثاغورية التي كان التعليم فيها مساويا للرجل أضافة الى أنها مدرسة طبية شهيرة أمتازت بطقوس دينية خاصة و كان أعضاؤها يعيشون في عفة و بساطة بموجب قانون ينص على الملبس و المأكل و الصلاة و التراتيل و الرياضة البدنية فكانوا منظمين تنظيما دقيقا [1] ضمن حياة تقوم على تهذيب النفس والفضيلة و الحكمة و العفة و منذ القرن الخامس كانت بعض العقول الصاحية قد أعادت النظر في وضع المرأة قلب التقاليد رأسا على عقب حين وقع في حب حسناء من مدينة ميليت تدعى أسبازيا طلق بسببها زوجته الاولى و أعطى الثانية مكانة لم تحصل عليها أثينية من قبل حيث كانت تشاركه حياته و تتناول طعامها بصحبته و تستقبل الاصدقاء مع زوجاتهم . و كان سقراط و أكنزا نوفان مع زوجته من جملة المدعوين الى حفلات العشاء ، و أغدق معاصروها من الثناء و المديح عما كانت تملكه من قرة الحديث و حسن التدبير و كذلك الهجاء مما يدل على قوة الصدمة السيكولوجية التي أحدثها هذا الخروج عن عن التقاليد في نفوسهم و أثرت اسبازيا تأثيرا عميقا في المجتمع و أحدثت أول تيار مناصر للمرأة يشهد به التأريخ وكان سقراط من بين المتحاملين على الأراء المسبقة و طرح اكثر من مرة مبدأ المساواة بين الجنسين ، و عبر افلاطون

عن ثقته في قدرات و مؤهلات المرأة العقلية و طالب بمشاركتها في حياة الاسرة و يجب ان تتاح لها فرصة التعلم بل قال يجب ان يتزوج الأذكياء من النساء الذكيات لينجبن أذكياء و يجب ان تشارك الرجل في تحمل الواجبات حتى الحربية [١٠] ، أما ارسطو فكان يرى ان المرأة بالنسبة للرجل كالعبد و السيد ، و الذكر بحكم البيعة أسمى مرتبة من الانثى و أغلب على قول افلاطون في المساواة . و على أية حال فأن هذه الحقب شهدت تقدما و تفوقا في مكانة المرأة ، و لكن هنالك نقطة مهمة فتحت الابواب أمام المراة في اليونان دون رجعة و هي فتوحات الاسكندر من خلال التأثيرت الشرقية الحضارية حيث ان الشرق يمتع المرأة بمكانة مرموقة ، قد وفر الاجواء لصورة أفضل للمرأة و تظافرت الجهود لخلق جو جديد للنهوض بالمرأة حيث تغيرت النظرة اليها تدريجيا بأعطائها المكانة المعنوية من خلال قصص الحب و نظم الاشعار التي تتغنى بالحبيبة ، استعادت المرأة حرية تصرفها و خرجت من الجو المغلق و أصبحت موضع تقدير و أحترام ، فاليوناني الذي رفض الانحناء أمام الملوك على الطريقة الفرعونية أستلهمها ليبتدع حركات أكثر لياقة و كياسة في تقبيل يد المرأة و جاءت الفلسفية الابيقورية و بيرون المتأثرة بالشرق الى حد بعيد ، كذلك الفيثاغورية الجديدة حيث أصبحت محاوراة الحب معروفة ، بل جند البعض نفسه في الدفاع عن قضية المرأة في اليونان المتأخرة و الحقبة الرومانية و الهيلنستية .

(٥) اما الفكر الفلسفي الاسلامي فمتأثر بالاسلام و شريعته التي أعطت للمرأة حقوقها و جعلتها موضع رعاية الرجل نعم ، فاذا تفحصنا القرآن الكريم لوجدناه قد خص المرأة بالرعاية و العناية : فتشريعاته ، عالجت وضعها بروح جديدة بعد ان رفعها من المهانة الى مكانة الانسان المعدودة في ذرية آدم و حواء ، بريئة من سمة الانحطاط و الدونية التي لحقت بها بسبب ظروف الجاهلية القاهرة ، لهذا لم يكتف كتاب الله بانكار وأد البنات ، او تلقي ولادتهن بالغضب و التبرم ، بل حث على إرساء دعائم مكانتها في الاسرة و المجتمع و الدولة و العمل الشريف .

ولا تقوم شريعة القرآن في المرأة على أساس النفعية بل المسؤولية الانسانية ، فالمرأة ، انسان كالرجل ، لها حق الحياة و الرعاية في العيش ، و الاستقلال بتبعاتها ، فكل ما هو للانسان ، للمرأة من ارث و ميراث بحكم انسانيتها ، سواء وجد معها الذكور أم لا ، و لا حجر عليها .

اما قصة جهادها و مشاركتها في الفتوح و المعارك و مواجهة المحن والتحديات ، فمعروفة و متداولة [١١] .كما دعت الاحاديث النبوية الشريفة الى مساواتها في طلب العلم ، و في نيل السعادتين ، و لم تمايز بينها و بين غيرها بسبب الجنس او اللون او العرق . و الرسول صلى الله عليه و سلم يقول : [لا فضل لأبن البيضاء على ابن السوداء الا بالحق] و [النساء شقائق الرجال] . مما يعكس النظرة الانسانية المتقدمة للمرأة بعد ان حررها من عبودة الشرك والجهل و الطغيان [١٢] . ومقابل ذلك لم تبخل المرأة على الوضع الجديد في شيء، حيث انطلقت في سوح العمل و الحياة الجديدة ، تواجه جبروت قريش ، و جبابرة الفرس و الروم ، مع أخيها الرجل ، و تحمل لواء التحرر و الحياة السعيدة ، ويكفي ان تكون أم عمار ، سمية ، المرأة ، اول شهيدة في الاسلام [١٣] .

اما في خصوصيات الحياة الزوجية للمرأة ، و على صعيد الوظيفة الطبيعية للزوجين ، كان العدل في توزيع الواجبات الاسرية ، يحتم على الرجل ، أن يسهر، مع وزوجته ، على الطفل و رعايته و توجيهه و تعليمه ، لكن الرجل يهرب من هذه المسؤولية الانسانية و الفطرية ، لذرائع كثيرة ، و يترك المرأة وحيدة تضطلع بهذه المهمة و قس على ذلك الواجبات الاخرى هكذا حلت الشريعة الاسلامية قضية المرأة ، و في ضوء هذه اللول جاءت اجوبة الفلاسفة :

أ – الكندي :

الذي أراد أن يضع أسسا للمجتمع وفقا لما جاءت به الشريعة الاسلامية ، فكانت نظرته الفلسفية قائمة على هذا الاساس [١٤] .

ب – الفارابي :

في بحث الانسان و سلوكه و تفاوته يقول الفارابي قد يكون التفاوت من جراء الجنس (الذكر و الانثى) و لو بحدود خاصة ففي العوارض النفسانية مثلا وجد ان ما يتصل بالقوة كالغضب و الشهوة هي عند الانثى أضعف و ما كان من العوارض مثلا كالرأفة و الرحمة فأنه في الانثى اقوى . و تلك فروق تعود لأسباب بيولوجية لم يعدم الفارابي في بعضها التساوي او الغلبة للأناث . فلا يمتنع ان يكون في ذكورة الانسان من توجد العوارض فيه شبيهه بما عند الاناث و في الاناث من توجد فيه هذه شبيهه بما في الذكور اما ما عدا ذلك فالمعلم الثاني رفض الاختلاف خاصة في ميدان الحس او التخيل او غيرها من مظاهر النشاط العقلي للأنسان [١٥] .

جـ - اخوان الصفا :

يرى الأخوان ان المرأة تخلف الرجل في العائلة في حالة غيابه لكنها لا تستطيع ان تحل محله في ادارة الشؤون العامة و وضحوا العلاقة بين الرجل والمرأة من خلال مفهومي الشركة و الرتبة فمن حيث الرتبة تأتي المرأة بعد منزلة الرجل ، اما الشركة فقد رأوا أن المرأة تشارك الرجل الشرف و الفضيلة في الاعمال المنوطة بها لكنها لاتصل الى حد المساواة الكاملة معه و تبلغ مستوى التعاون و المحبة فتتعاضد ادوارها مع ادوار الرجل . أما من حيث النشأة ومصدر النفوس فقد قالوا بأن المصدر واحد عند كليهما و العبرة بقدر مايصقل الانسان نفسه ذكرا كان ام انثى بقدر ما يسمو بها الى عالمها الروحاني الذي وردت منه . والعيب الذي يلحق المرأة فأنه يصيبها لنقص في التعلم وجهل في التربية فأذا ما حصل نفس الحال للرجل كانت النتيجة واحدة . اما من حيث الاشارات و الوظائف المتخصصة لها فهي تعكس صورة جيدة عنها . واما من حيث المفاهيم فأن الاخوان يضعون المرأة في طبقة و ينظرون اليها من خلال هذا التصنيف ، و بما ان مفهوم الطبقة عندهم ديناميكي متحرك فأن وضع المرأة في داخله يتصف بالديناميكية و التحرك والترقي [١٦] .

د - ابن سينا :

اما ابن سينا فيرى ان الرجل يقتني القوت ومن ثم فهو يحتاج الى خازن وحافظ و بذلك تأتي المرأة كزوجة تحافظ على المقتنيات و تعتني بها و تكثرها وهذا ما يشترك فيه مع الفارابي الا ان ابن سينا يبحث في صفات المرأة الصالحة وطبيعة العلائق بين الزوج و الزوجة و في السياسة المثلى الواجب اعتمادها من قبل الرجل لتحقيق الحياة البيتية الفضلى و يرى ان المرأة الصالحة هي شريكة الرجل في ملكه . ويحدد الصفات التي يجب توفرها في المرأة لكي تحظى بأهتمام و احترام زوجها وهي الهيبة الشديدة والكرامة التامة وشغل خاطرها بالمهم [١٧] .

هـ - مسكويه :

ويشارك مسكويه ابن سينا آرائه عن المرأة الا انه أقل تفصيلا فيما يخص العلاقة بين الرجل و المرأة ، الرجل يكسب الارزاق والزوجة تضبطها وتحفضها وتدبرها كي تثمر و لا تضيع [١٨] .

و - ابن رشد :

يرى ابن رشد ان المرأة اهل لمشاركة الرجل في كل نشاط ، يقول في هذا الصدد وعند الرجوع من تصنيفات الفضائل أي قضية الحراس - الحفظة ، المحاربين ، الجند و هذا المقام هو مقام البحث فيما اذا كانت المرأة ذات طبيعة مماثلة لطبيعة صنف أخر بذاته من طبقات المجتمع لا سيما المرأة الحارسة ، أو البحث فيما اذا كانت الطبيعة الانثوية مختلفة عن الطبيعة الذكرية ، ففي الحالة السابقة تكون النساء مبدئيا مساويات لغيرهن في ما يختص بالنشاطات المدنية بحيث يوجد بينهن المحاربات و الفيلسوفات و الحكام و ما شاكل ، خلافا لذلك تكون المرأة صالحة لبعض نشاطات الدولة التي لا يناسب للذكور من السكان القيام أو أنهم يكونون غير مؤهلين لذلك . مثل الولادة و تربية الاطفال ، فمن حيث كون المرأة صنفا من أصناف الانسانية ، كما الرجل ، فمن الضروري لها ان تشاطره تلك الصفة الانسانية و أن تختلف عنه في الدرجة فقط و معنى ذلك ان الرجل أكثر

كفاءة من المرأة في معظم النشاطات الانسانية ، علما أنه لا يستحيل ان تكون النساء أكثر كفاءة من الرجال في بعض النشاطات كما يظن مثلا فيما يختص بالممارسة الموسيقية و لهذا ، قيل ان افضل الاغاني هي تلك التي يؤلفها الرجال وتلحنها النساء بالاتغام ، لذا كان من الواجب ان تعين للنساء أبسط أنواع النشاطات من هنا نجد ان بعض الوظائف تصلح للرجال أكثر من النساء و البعض على العكس من ذلك و ليس من المستحيل ان يوجد بينهن فلاسفة و حكام [١٩] .

أما في الفكر العربي ، فلقد تفاوتت مكانة المرأة بحسب ظرفها التأريخي ووضعها القانوني المثبوث في ثنايا كل المجتمع . و تبقى مكانة المرأة العربية المعاصرة هي موضوع بحثنا الاساس الذي سنفصل القول فيه .

المجتمع العربي الحديث و مشكلات المرأة :

أن الانقطاع الحضاري اللاحق على سقوط بغداد عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م كان وراء نسيان المنجزات الانسانية و الحقوق المدنية و بعد تواصل انقطاعنا استمر تقدم الغرب ، دون ان يكون هذا التقدم بعيدا عنا حيث كان التماس قائما و الحوار الحضاري ، قد أثار ردود افعال مختلفة عن حرية المرأة و المساواة [٢٠] ، ولكن بسبب عدم تكافؤ أطراف الحوار من جهة ، و لغياب المنهج العقلي الواقعي من الجهة الاخرى كان التفاوت [٢١] . كذلك أسهم المفكرون العرب في مواجهة المواقف و كان أبرزهم أصحاب الاتجاه العقلي التراثي المجدد الذي دعا الى الاصالة و المعاصرة و أعتبر مسألة الحرية شغله الشاغل ، و ان جاءت في اطار من التأثر بفلاسفة اوربيين على ظن الدكتور السامر ، امثال كومت و سبنسر ومل هذا على صعيد الفكر الاجتماعي – الفلسفي اما على صعيد العقل الاصولي ، فلقد اكمل الشيخ عبد الرازق المسيرة بكتابه (نظرية الحكم في الاسلام) .و هكذا جاءت المحاولة للتوفيق بين أفكار الحرية و بين المنطلق الاسلامي [٢٢] لمفهوم الحرية و امتدت الى مناقشة حرية المرأة و مساواتها و تعليمها بشكل غير مألوف حرك جمود المجتمع و حث العقول على البحث و التنقيب وصولا الى الحل

الأمثل . فما هي خلاصة الموقف العقلاني المحدد أزاء حرية المجتمع و حرية المرأة :

(١) رفاعة طهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣ م) :

من طلائع العرب الذين اخذوا بمبادىء الثورة الفرنسية ، و معايشة المجتمع الفرنسي ، و الاعجاب بقيم الحضارة هناك و فكرة الحرية و الوطنية و المساواة التي تمناها لشعبه تتصل بمبادىء [الحرية و الأخاء و المساواة] التي اجتذبت أحرار العرب ، و لاسيما بعد ان فتح نابليون ، بوصوله الى مصر عام ١٧٩٨م ، اكثر من جسر مع المواطنين في هذه الربوع ، فالزائر لباريس يقارن بين المجتمعين ، و يقف على حجم التخلف الذي أصاب مجتمعنا بالقياس اليهم !

لقد بث رفاعة مبادؤه في الحرية و الوطنية و العدالة و المساواة في كتبه مناهج الالباب ، و تلخيص الابريز ، و المرشد الامين ، منشغلا بالحرية و أنماطها الطبيعية و الساوكية و الدينية و المدنية و السياسية ، و التي تقود المواطنين الى التعلق بوطنهم و التضحية من أجله . كيف لا ، والمواطن يجد ان من غايات هذه الحرية مساواة الناس في الاحكام ، و صيانة النفس و العرض [على مقتضى احكام شرعية و اصول مضبوطة مرعية] [٢٤] و هو ما أكده زميله خير الدين التونسي في كتابه [اقوم المسالك] الذي طبع في تونس سنة ١٨٦٧م في سياق حديثه عن الحرية و العدل و الاصلاح .

و الذي يهمنا هنا من رفاعة موضوع كتبه التي تتناول حرية المرأة ، حيث يرى في كتاب تلخيص الابريز ضرورة تحقيق حرية المرأة و حقوقها لكي تسهم في نهوض المجتمع ، و لا يمكن ان نتصور تقدم هذا المجتمع ، و نصف أفراده معطل ، و نصفه الأخر جاهل و متخلف ! ذلك الجهل الذي كان وراء رفض الرجل العادي لفكرة تحرير المرأة و مساواتها ، لأنه يربط بين هذا التحرر و بين السقوط الاخلاقي ، مع انه وجد ان اول مظهر للحرية للمرأة الغربية ثقتها بنفسها و قوة شخصيتها و قدرتها على مواجهة التحديات ، عليه يستنتج من ذلك [ان عفة

النساء لا تحفظ بالستر او الكشف بل بالتربية] [٢٥] . و يصف هؤلاء الرافضين ببقايا الجاهلية [٢٦] الذين جعلوا جهل المرأة و عطالتها سببا لحجر حريتها . ولا يمكن للمرأة ان تظهر جوهرها الانساني الا من خلال حريتها ، فالمرأة الجاهلة عاجزة عن تقدير قيمة الحرية لذلك نراها تتصرف بشكل غير متوازن . من هنا خص موضوع تعليم المرأة بكتاب آخر هو [المرشد الامين للبنات و البنين] والذي امتدح فيه الخديوي اسماعيل ، لانه ساوى بين البنين و البنات في التعليم ، و لم يجعل العلم كالارث ، و بهذا سوق المعارف المشتركة قد قامت و طريق العوارف للجنسين استقامت و ليل جهل النساء جلاه فجر المعارف [٢٧] .

و بذلك قرن رفاعة بين حرية المرأة و تعليمها و مساواتها ، و اختلاطها مع الرجل و هذا هو محصل تعليم المرأة لان [صرف الهمة الى تعليم البنات والصبيان يحسن معاشرة الازواج ، لما يزيدهم أدبا و عقلا ، ويجعلهن بالمعارف اهلا] [٢٨] . و يوفر فرص التفاهم و المشاكلة التي تحقق واحدا من مبادىء الحرية ، وأعني به الأختيار المتبصر للزوج و الزوجة [فالمرأة محتاجة للتعلم لأرشادها في امور الزوجية و العشرة و في تربية الاولاد الى الطريق المستقيم] الى جانب توفيره فرصا شريفة لعمل المرأة و نفع المجتمع و ينقذها من البطالة وخراب البيوت والثرثرة ، [فالعمل يصون المرأة عما لا يليق ، و يقربها من الفضيلة] [٢٩] . و بفضل نظرته التجديدية المتفتحة ، يرى ان هذه المبادىء لا تعارض الدين ، اذا لم تكن هي من صلبه ؛ لانه اكثر عدلا ، و العدل لا يستحق [الا بزوجة واحدة صالحة سليمة] [٣٠] . و لكل قاعدة استثناء . هذا الى جانب دعوته الى ضرورة سيطرة الدولة باعتبارها سلطة ولاية الامة ، على حالات الطلاق و التفريق ، لذلك لا ينصح بالطلاق الا في المحكمة و بعد ثبوت دليل شرعي بفك العقد لكي لا تترك هذه الامور لأمزجة الافراد و نزواتهم . لقد لاحظ رفاعة تفاوت القيم في المجتمع الغربي حتى في مسألة الرقص ، و كيف اصبح هناك فنا و رياضة متكافئة ، لكنه بقي هنا سبيلا للاثارة و التهييج [٣١] ، استكمل

ذلك في مشرقنا المغكر احمد فارس الشدياق [٣٢] (ت ١٨٨٧م / ١٣٠٥ هـ) كما كان لرفاعة رفيقا في المبادىء التحررية الآنفة و أعني به علي مبارك الذي دافع هو الأخر عن المرأة و حريتها و حقها في التعلم و العمل ، فرفض الحجاب و دعا الى خروجها الى ساحات العلم و العمل ، و لم يمانع بالاختلاط المهذب ، لمساعدة الرجل في شؤون الحياة ، و ان هو أعتبر واجبها الطبيعي رهن [بالاسرة ورعايتها و تربية اولادها] [٣٣] .

(٢) الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥م / ١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ)

ربط محمد عبده الاصلاح الديني ، بالاصلاح الاجتماعي ، و ان الاخير لا يتحقق اذا لم نحقق حرية الفكر من قيد التقليد ، لان اعلاء شأن العقل هو بداية النشاط الانساني المشروع لاسيما في حقل المعرفة و التربية و التعليم ، لذلك اقترن عنده الحديث عن حرية المرأة و مساواتها ، بالعلم و المعرفة و تحرير العقول . لقد أحسن الدكتور محمد عمارة صنعا حين جمع لنا آراء الشيخ عن المرأة في كتاب مستقل [٣٤] بعد ان أنجز اعماله الكاملة [حيث وجد الباحث انحياز الشيخ الى جانب حرية المرأة و مساواتها مع الرجل و تعليمها و توفير العمل لها لكي لا يبق نصف المجتمع معطلا بلا مبرر غير الجهل و الانحطاط . و ذلك نهج وعقيدة آمن بها الشيخ و بثها في كتاباته الاجتماعية و مقالاته الاصلاحية عن مسألة الزواج ، وتعدده ، و الحجاب و المصاهرة . بدأ حملته هذه منذ عام ١٨٨١م ؛ و لم يقف حتى أيامه الاخيرة و هو يفسر القرآن الكريم الى سورة النساء [٣٥] .

كان فهم الشيخ لهذه المبادئ ، تراثيا تجديدا ؛ تميز بالعودة الى المنابع الأولى بعقل متحرر ، فكان بذلك ، ممثلا لمدرسة التجديد ، المتسلحة بعقلانية مستنيرة ؛ كما ان قضية المرأة عنده غير معزولة عن قضية الاصلاح [فالاسرة لبنة الامة الاولى ، لابد من مداواة جراحها ، اذا شئنا بنيانا قوميا ينهض برسالته ، ويتحدى ما يحدق به من أخطار] [٣٦] . فالأمة كما يقول تتكون من البيوت (الاسرة)

فصلاحها من صلاحها و من لم يكن له بيت لا تكون له أمة و البيت يبدأ من المرأة و الرجل ، و هما عنده متماثلان في الحقوق و الاعمال ، كما أنهما متماثلان في الذات و الشعور و العقل أما الرجال الذين يحاولون بظلم النساء ان يكونوا سادة في بيوتهم ، انما يولدون عبيدا لغيرهم [٣٧] .

أ – منهجه :

ان منهج الشيخ هنا ، نابع من معايشة و معاناة ، و موقف عقلي – واقعي ؛ يصفه في قوله [لقد استنتجت بالاستقراء ، منذ كنت قاضيا في أحدى المحاكم الجزائية (٧٥٪) من القضايا ، بين الاقارب ، بعضهم مع بعض ، فهل من المعقول ان يكون الفساد في العلائق الطبيعية الى هذا الحد من التصرّم ، ونتساءل عن تصرم العلائق الوطنية ؛ هل يمكن بعد ان فقدت الروابط الضرورية بين العائلات ، ان نبحث عن الروابط ، للجامعة الكبرى الوطن أو ليس هذا كمن يطلب الثمر من أغصان الشجر بعد ما جذّ أصولها و جذورها] [٣٨] .

ب – فلسفته :

ينطلق الشيخ محمد عبده في قضية حرية المرأة و حقوقها اللاحقة من منظور طبيعي يقوم على أساس [ميثاق الفطرة بين الزوجين] . و خلاصته ان (عاطفة التراحم و داعية التعاون انما تكونان على أشدهما و أكملهما في الفطرة بين الزوجين (الوالدين) ، تلك الفطرة التي جعلها الله ميثاقا بين الجنسين ، وبسببه تترك المرأة اهلها ، لتضع نفسها في احضان انسان جديد هو الرجل [فاذا لم يصن هذا الميثاق ، فلا خير فيه !] فالمساواة عند الشيخ هي [عودة الى الاصل الفطري المتكافيء] الذي يؤكده قوله تعالى [و لهن مثل الذي عليهن] (البقرة : ٢٢٨) و الذي بسببه قال عبد الله بن عباس (رض) : [أنني أتزين لامرأتي كما تتزين لي ، لهذه الاية (فكيف يأتي احد الطرفين) ليتحكم بالاخر و يتخذه عبدا ويستذله و يستخدمه لصالحه ، و لا سيما بعد عقد الزوجية و الدخول في الحياة

المشـــتركة التـي لا تكـون سـعيدة الا بـالاحترام المتبـادل بيـن الزوجيـن ، و القيـام بحقوقه] [٣٩] . و بغير ذلك يكون الظلم و الاعتداء و الاجحاف .

نعم ، ان عاطفة التراحم الفطرية بين الوالدين و سائر الاقربين تكون على اشـدها [فمـن فسـدت فطرته ، لا خير فيه لأهله ، و من لا خير فيه للناس ، لا يصلح ان يكون جزءا من بنية الامة ، لأنه لم تنفع فيه اللحمة النسبية التي هي اقوى لحمة طبيعية تصل بين الناس ، فأي لحمة بعدها تصله بغير الاهل . فتجعله جزءا منهم يسره ما يسرهم و يؤلمه ما يؤلمهم ، و يرى منفعتهم عين منفعته ، وهو ما يجب على كل شخص لأمته] [٤٠] .

و يرى الشيخ ان سبب التفكك الاجتماعي يعود الى عدم وضع المرأة في مكانها اللائق ، و بسبب غياب الحرية ، و سوء أساليب الزواج و المصاهرة ، والتي جاءت مفارقة لجواهر الدين ، حتى ظن الشيخ مع نفسه وهو يواجه مئات المشاكل في المحكمة و كأن الناس [لا شريعة لهم و لا دين ، الهتهم اهواؤهم وشريعتهم شهواتهم ، و ان حال المماسكة (التعاقد) بين التجار في السلع هي احفظ و اضبط من حال الزواج في الصلة من روابط الزواج] [٤١] ، وهم في ذلك انما يستحضرون عصر الحريم و الجواري الذي هو ليس من الاسلام في شيء .

و بذلك القى الشيخ مسؤولية التفسخ العائلي على الرجل الذي يجري وراء الشهوات و يستمتع بالمرأة لنزوات انانية فالرجال كانوا و ما زالوا يطلبون النساء ويرغبون فيهن ، ثم يظلموهن حتى في التحكم في طبائعهن و الحكم على شعورهن (مشاعرهن) و يأخذ بعضهم في ذلك من بعض بالتسليم و التقليد [٤٢] و بعد الرجل ، يحمل الشيخ محمد عبده القيمين على فهم الشريعة القسط الاكبر من المسؤلية بسبب فهمهم جوهر الاسلام من المرأة ، فبقيت نظرة الرجال [عودة الى الموقف الجاهلي الذي جاء الاسلام فحرر المرأة منه ، و اعطاها من الحقوق مثل ما للرجال ، و ان ما جاء به القرآن الكريم من إحكام الاصلاح حال البيوت

والعائلات ، بحسن معاشرة النساء ، لم تعمل به الامة على وجه الكمال ، نسيت معظمه في هذا الزمان و عادت الى جهالة الجاهلية] [٤٣] . أما حكم الشريعة العادل ، و حكم العقل السليم ، فيقول بضرورة تحرير المرأة ، و مساواتها ومكافأتها مع الرجل ، و توفير فرص التعلم ، والعمل و حمايتها من ظلم الجاهلين، وللشيخ في ذلك كلام مفصل [٤٤] .

أما الدرجة التي وردت في القرآن الكريم و القيمومة و التعدد و الطلاق ، فيناقشها الشيخ في ضوء منطق العقل و الدين و الواقع و الحياة ، فهو لا يرى ثمة مشكلة في المرأة المحصنة المتعلمة المتعاونة مع زوجها الساعية الى صلاح نفسها و صلاح اسرتها و مجتمعها و زوجها ، مثلما هو يسعى الى صلاح نفسه و اسرته، وصولا الى حياة اسرية هانئة و هي مطلب الحياة الطبيعية و غاية الميثاق الطبيعي الآنف . بل المشكلة تبدأ مع الرجل المتخلف او المرأة الناشز ! و مع الانحراف و الخروج عن الخط المستقيم ، يكون الموقف التأديبي في الاسلام ؛ ليمنع الظلم و الحيف ، و لا سبيل الى ذلك الا برعاية الدولة و تيقظ رجالها وأنتباه القيمين على الشريعة ، فولاة الامور اولى بالقيمومة ، و رجال الشريعة المتنورين اقدر على حماية الناس من الضرر و الضرار [٤٥] ، و الا فلا راد لنزوة الجهلة غير ولاة الامر .

و لما كان الشيخ يواجه يوميا الظلم الفادح الذي يقع على المرأة فيصرخ بالجميع [اين الله ، و اين كتاب الله و شرعه من هؤلاء ؟ و اين هم منه ؟ ، انهم ليسوا من كتاب الله في شيء و لكن المسرفين اهواءهم يتبعون] [٤٦] و الا [كيف تسعد في الدنيا والآخرة أمة نصفها كالبهائم و لا يؤدي ما يجب عليه لربه ولا لنفسه و لا لأهله و لا للناس ؟] [٤٧] . و هكذا ارسى الشيخ محمد عبده دعائم الاتجاه العقلي – التحرري المجدد ، الذي هو ابن الواقع ، و الذي ترك أثره في الكثير من رجال الفكر في المغرب العربي و مشرقه ، و كانت مصر في ذلك مركز التأثير ، وكان من اكثر المدافعين فيها عن حرية المرأة هو قاسم امين .

(٣) قاسم امين (١٨٦٥ - ١٩٠٩ م / ١٢٨٢ - ١٣٢٦ هـ)

كانت بين امين و الشيخ محمد عبده ، شركة اساسها الدعوة الى التحرر حتى تجلت هذه الشركة في كتاب [تحرير المرأة] الذي حرر الشيخ بعض فصوله ، منذ سنة ١٨٩٩م ، و المتاب الثاني هو [المرأة الجديدة] ثم كتاب [كلمات] الذي طبع عام ١٩٠٨م حتى تسنى الامر لمحمد عمارة كيْ ينشر الاعمال الكاملة لهذا الداعية التحرري [٤٨] ، استكمالا للمسيرة التي اشرها الشيخ في السنين السابقة .

و على أهمية موقع الشيخ في الحياة الفكرية العربية ، لم تحتل أفكاره حول حرية المرأة ، موقعها مثلما كان على يد قاسم امين ، على الرغم من كون الاثنين رفيقا درب يؤدي الى غاية واحدة ، مهما اختلفت بهما المنطلقات ، و الى أي اتجاه نسب هذا او ذاك . فاستحق كتاب [تحرير المرأة] ان يكون المنهاج الذي يعالج مسألة الحرية و المساواة و المساواة و التعليم ، و العمل و العلم ، في نظر المتنورين المعاصرين و اللاحقين [٤٩] لزمن هذا المفكر .

ان واقعية أمين تتجلى في ادراكه لتفريق الشريعة الاسلامية بين الرجل والمرأة ببعض الحقوق لكنها منحت المرأة كامل موقعها في المجتمع العربي الاسلامي ، بعد ان رفع عنها القرآن الكريم مسؤولية الخطيئة الأبدية ، ليجعلها شركة بين الرجل و المرأة [٥٠] . من هنا انطلق هذا المفكر في معالجة مسألة الحرية و ما تجره وراءها من موضوعات معقدة وشائكة في مجتمع يعاني من امراض اجتماعية كثيرة . و لكي لا نكرر المقولات الاساسية عن هذا الموضوع ؛ بعد ان بسطناها في الصفحات السابقة . سوف نقف عند أبرز المنطلقات الاساسية عند المفكر .

أ- ان من ابرز معيقات المرأة في المجتمع العربي مسألة الامية المعرفية والحضارية ، لها و للرجل ، و التي لم تدرك المرأة مخاطرها عليها و لا على المجتمع ، مثلما لم يدركها المجتمع ، فأصبحت ، بمرور السنين و القرون ، [هي و رفيقاتها من النساء ، عالم مستقل بذاته (منغلق على نفسه) لا يجمعه بعالم

الرجال فكرا و عمل ، (و كأنهن) أمة داخل أمة ، لها اخلاقها و عوائدها ومعتقداتها] [٥١] و جهلها .

ب - يقابل ذلك أمتياز الأسر الراقية بالتعليم حيث توفر لهن معلمات اجنبيات لاغراض التثقيف و التهذيب ، ناهيك عن دخولهن في مدارس الارساليات الاجنبية التبشيرية ، منذ سنة ١٨٣٥م ، على الرغم من رفض المجتمع الاسلامي لهذه الظاهرة في أول الامر .

جـ - حرية المرأة و أصلاح شأنها ، لا يقع على عاتق النساء (الجاهلات) بل على عاتق الرجال . و معالجتها تستوجب التوجه الى الطرفين ، و القتال على جبهتين ! و كان ما كان من ردود الافعال و الضجة الاعلامية التي رافقت دعوته هذه فمنذ نشر مقالاته ، ثم كتابه تحرير المرأة و الناس بين مؤيد و معارض ، الى الحد الذي رأى فيها البعض [مروق على الدين و تمهيد للالحاد] [٥٢] ، و تلك تهمة ألصقت بجميع من نادى بحرية المرأة في مصر و خارجها . و بمنطق واقعي تسأل قاسم امين في كتابه المراة الجديدة ، عن جدوى حجر المرأة و أستعبادها ، و عن سبب ذلك الاستعباد و الحجر ! قائلا : [لا يصح ان يكون اختلاف العقول (حينما قالوا أنها ناقصة عقل) سببا لتجريد الانسان من حريته ، و الصحيح ان ينقاد العقل الضعيف للعقل القوي ، و رجلا كان أم أمرأة] [٥٣] .

هذا من جهة ، و من الجهة الاخرى ، يرى امين [ان الحرية تؤكد قوة الانسان لا ضعفه ، و ثقته بنفسه ، لا تبعيته ، و احترامه للاخرين احتراما متبادلا ، لا على اساس العبد و السيد] [٥٤] ، و[ممارسة الحرية فيه تعبير عن قوة النفس ، والنفس الضعيفة تنحني للقوى و تتكمش أمام الظالم ، و تهاب كل صاحب سلطة ؛ و بعكسها النفس القوية التي تجد في أظهار جرأتها على هؤلاء وأمثالهم منفذا يخرج فيه ما يزيد عندها من القوة عن حاجة حياتها] [٥٥] .

فالتضحية عنوان الابطال ، و الحرية هي أساس الحياة الجديدة التي نريدها لانساننا ، الحياة المنتظرة للنساء و الرجال على الحد سواء ، و الحر الشجاع وحده

هو الذي [يفتح الطريق نحو المستقبل المشرق ، و هو الذي يمارس الفعل الجرئ لاسقاط الظلم و الاستبداد] (٥٦) . مهما تنوعت أشكال الظلم و تعددت سياسيا كان أم اجتماعيا [فقد تقفل بيوت المومسات ابوابها فيهن من هي أوفر حشمة و أدبا ، وأكثر بُعدا عن الشهوة من كثير من المخدرات اللائي تنحني الرؤوس امامها] (٥٧) . اما المتجارة بأعراض النساء و التحايل على الشرع ، فلا ينم الا عن نفوس وضيعة (٥٨) .

د - ان قيمة المرأة الحقيقية ، لا في جمالها أو حسن مفاتنها فحسب ، بل في أخلاقها الفاضلة و عقلها الراجح لذلك يقول امين : [كلما أردت ان أتخيل السعادة، تمثلت أمامي صورة أمرأة (جميلة) حائزة لجمال المرأة و عقل رجل] (٥٩) ، يقصد ، أمرأة جميلة ، و متعلمة و مثقفة تأنس جليسها و تشعره بذكائها .

هـ - من هنا أعتبر تعليم المرأة ، هو أساس مساواتها مع الرجل ؛ و شرط لا بد منه أستكمال بنائها العقلي و المعرفي و الانساني ؛ لانه لمس لمس اليد تخلف المرأة المصرية حتى عن قريناتها التركيات ، بخلاف الرجال ! فلم لا ترتقي المرأة الى هذه المكانة التي تستحقها (٦٠) ! نعم قال التركيات و لم يقل الفرنسيات ، لكي لا يكون الفرق الحضاري حجة بيد الخصوم . لذلك راح أمين يلوم الكثير من الرجال الذين يستهينون بالنساء ، و برابطة الزواج ، و ميثاقه الفطري ، فيسعون الى الزواج النفعي [حتى ليبد الرجل أمامك و كأنه من أشد المرابين] و كأن الزواج قد أصبح [حيازة رجل لا مرأة ، فهي (زوجة) بمجرد أرادة الرجل ، ولا فرق عنده بينها و بين الحيازة غير الشرعية] (٦١) ، بخلاف العلاقة الزوجية المتكافئة في المجتمع الغربي و القائمة على حسن الاختيار و التعقل ، و بأمكاننا ان نعبر عن هذا المستوى من التعامل الانساني اذا ما نظرنا الى العلاقة الزوجية لا على أساس المتعة الجنسية ، بل على أساس الشركة المتكافئة السعيدة [فهؤلاء هم تابعون لقانون الحب و الامانة و الاخلاص لنسائهم و أولادهم ، قانون أعلى من مبادئ حب الذات] (٦٢) . عندها سيتراجع شبح الطلاق ، الذي أساء الكثير

استعماله من طرف واحد بسبب غياب المكافأة بين الرجل و المرأة [٦٣] ، فالمعادلة الصحيحة هي بمجتمع حر ، و انسان حر ، و مساواة في العلم و العمل ، تتكامل حلقة الحرية .

مصلحون آخرون ينادون بحرية المرأة

لم يقف نشاط الاتجاه العقلي - الديمقراطي - الواقعي ، الداعي الى الحرية والتسلح بسلاح العلم و المعرفة ، و المساواة في الحقوق و الواجبات ، عند كتابات قاسم امين ، او داخل مصر وحدها ، بحكم الرابطة القومية التي تجمع مفكري الامة من مشرقها الى مغربها ، فتابعه في مصر لطفي السيد و مصطفى كامل وسعد زغلول و طلعت حرب .

أ - في بلاد الشام :

اما في بلاد الشام فأستكملت دعوات الشدياق ، مع محمد عبده أثناء نفيه الى بيروت تكوينها لتجتمع في شخوص العديد من التلامذه الذين ساروا على منهج الشيخ ، ومنهم ولي الدين يكن (١٨٧٣ - ١٩٢١ م / ١٢٩٠ - ١٣٥٣ هـ) وهو يدعو الى حرية المراة و تخييرها في مصيرها و انتقاء زوجها عن روية و محبة [٦٤] ، لا بالقهر و الاكراه .

اما الشيخ محمد رشيد رضا (١٨٦٥ - ١٩٣٥م / ١٢٨٢ - ١٣٥٣ هـ) تلميذ الشيخ محمد عبده و داعية التجديد ، في مجتمع تختلف ظروفه السياسية في الخمسين سنة الاولى من عمره عنها في سنيه اللاحقة ، اختلافها عن ظروف مصر و المغرب العربي في كلا الفترتين (و اعني وجود السلطة العثمانية) لذلك اجتهد هذا المفكر يدعو للوحدة الاسلامية ، و الجامعة الاسلامية ، و الدولة الاسلامية و ان هو يرى مقر هذه القيادة الروحية في الحجاز ، و عارض الكثير مما ظن انه يؤذي الاسلام و العروبة من مظاهر سلوكية ، و من بينها قضية المرأة و حريتها . فلقد وافق هذا المفكر على تحقيق مواقع انسانية متقدمة لها ، لكنه كان يخشى من خطر تقليد الغرب في هذه المسالة الحساسة [٦٥] . و كما رأه

في مصر ، و ما آل اليه ذلك ، في ظنه ، من تهتك النساء و تفكك الاسر [٦٦] ، فهو كما يرى [ان الافرنج المستعمرون ، يعنون بافساد دين الامة و اخلاقها لتتحل] و ينظر الى هذا كجزء من المؤامرة الماسونية (الصهيونية) الاستعمارية ، و كان [بدء هذا الفساد الديني الاخلاقي في عهد اسماعيل باشا [٦٧] و ما أشاعه رجاله من حرية الفسق و الفجور ، حتى فسد الرجال و اسقطوا التكاليف] [٦٨] .

فالعلّة كما يراها رضا ليست في النساء ! بل في الرجال الفاسقين ! الذين يخشى على النساء من سلطانهم و هم يتذرعون بالحرية ! و يستغلونها لتحقيق مآربهم الدنيئة .

ب - في المغرب العربي :

و في المغرب العربي ، ثمة سبق بالتأثر و التاثير مع المغرب و ان كان ضمن اشتراطات الواقع العربي فأذا كان التماس العربي - المصري مع اوربا قد حصل بسبب احتلال نابليون لمصر سنة ١٧٩٨م ، ثم رحيله عنها بعد حين . فأن التماس المغربي (القاهر) كان منذ سنة ١٨٣٠م و لا سيما مع فرنسا ، التي هدمت بسلطانها الاستعماري مفهوم الحرية الذي ثارت من اجله جماهير الشعب سنة ١٧٨٩ م . مع ذلك كان رجال الفكر المغاربة ، لا سيما في تونس ، و المغرب ، ثم الجزائر ، مأخوذين بتلك المباديء الداعية الى الحرية و الاخاء والمساواة . و كان من أوائل هؤلاء المفكرين خير الدين التونسي ، الذي أعجب بمظاهر الحرية في فرنسا ، كما هو شأن رفاعة و الشدياق ، لكنه وقف عند حدودها الشرعية ، لتعويله على الحرية التي تحترم الدين ، و يبدو ان فهم خير الدين للحرية كان أعمق من فهم رفاعة و الشدياق ، لها حين قسمها الى حرية شخصية ، و سياسية ، و مطبعية (أي حرية النشر و الرأي) لذلك يقول [و بالجملة ، ان الحرية اذا فقدت من المملكة تنعدم فيها الراحة و الغنى و يستولي على اهلها الفقر و الغلاء] [٦٩] . مثله في ذلك مثل رفيقه حمدان جوجة ، الذي

زار فرنسا هو الآخر و اطلع على مبادىء الثورة الفرنسية ، و على النظم الديمقراطية في اوربا ، و دعا [الى الحرية و التجديد و الأخذ بأسباب الحضارة والمعرفة] . يقول في كتابه (المرأة ، تحقيق و نشر محمد العربي الزبيري ، طبعة الجزائر ، بدون تأريخ ، ص ١٣٠) [و في رحلتي الى اوربا درست مبادىء الحرية الاوربية ؛ .. فوجدت هذه المبادىء تشبه المبادىء الأساسية لشريعتنا اذا استثنينا بعض الفوارق] (٧٠) . وهكذا وجد الرفيقان [تقييد الحرية المطلوبة في المجتمع العربي بقاعدة شرعية] (٧١) و دعا خير الدين على وجه الخصوص الى [تعاون علماء الشريعة مع رجال السياسة في التشريع للمجتمع بما يلائم احتياجاته ، لان أستنباط المصالح السياسية على مقتض الاحوال الشرعية صعب لا يتيسر لاكثر الناس و ترك الولاة و الحكام يتصرفون بغير قيد من نصوص صريحة و اضحة يفتح باب الجور] (٧٢) . و يؤدي الى سوء الظن بهم ، وسوء تصرف الناس و ظام بعضهم البعض ، ولا سيما الرجل للمرأة ، و وسع ذلك الموقف ، و دعا الى حرية المرأة و تعليمها و مساواتها عبد الحميد بن باديس و بيرم التونسي و مصالي ، والثعالبي والخطابي والشابي و جميع انصار التحرر و الديمقراطية في المغرب العربي و على مدى العقود اللاحقة حتى عهد الاستقلال .

هوامش الدراسة :

(١) الجابري : علي حسين ، الحوار الفلسفي بين حضارات الشرق القديمة و حضارة اليونان ، بغداد ، ١٩٨٥ ، ص ٧٢ - ٧٩ .

(٢) متولي ، د. محمود : مصر و العرب بين الحربين ، مجلة الباحث العربي، العدد ١٤ ، السنة ١٩٨٨ ، لندن ، مجلة مركز الدراسات العربية ، ص ٥٣ .

(٣) الجابري ، علي حسين ، المرأة العراقية بين الامس و اليوم ، السليمانية ، ١٩٧٨ ، ص ٤ - ٣٧ .

(٤) الفارابي ، تحصيل السعادة ، ص ٨٨ .

(٥) الأشوري ، احيقار الحكيم ، حكمة احيقار ، بغداد ١٩٧٦ ، ص ٤٠ - ١٢٨ .

(٦) الجابري ، علي حسين ، الحوار الفلسفي بين حضارات المشرق القديم و حضارة اليونان ، بغداد ١٩٨٥ ، ص ١٤٤ - ١٥٧ .

(٧) بيتر ، مونيك ، المرأة عبر التأريخ ، ترجمة منريب عبودي ، ص ٤١ - ٤٧ .

(٨) ايمار ، وج ، الشرق و اليونان ، تأريخ الحضارات العام ، ص ٤٨ .

(٩) كرم ، يوسف ، تأريخ الفلسفة اليونانية ، ص ٢٢ .

(١٠) افلاطون ، الجمهورية ، ترجمة فؤاد زكريا ، ص ١٢٣ ، ١٦٨-١٦٩ .

(١١) الجابري ، علي حسين ، حكاية شهيدات العراق الالف (بغداد ١٩٨٥) ، القسمان الاول و الثاني ، ص ١٨ ، ٢٨ - ٢٩ .

(١٢) نفس المصدر السابق .

(١٣) نفس المصدر السابق .

(١٤) الكندي ، رسائل فلسفية ، تحقيق عبد الهادي ابو ريدة ، ص ٢٢ - ٢٣ .

(١٥) الفارابي ، أراء اهل المدينة الفاضلة ، بيروت ص ٨٠ ، وكذلك ، السياسة المدنية ، ص ١٤ .

(١٦) رسائل اخوان الصفا ، ج ١ ، ص ٢٨٤ ، ص ٣ ، ص ٩ -١٠و٣١- ٣٢، ٥١١ - ٥١٢ .

(١٧) ابن سينا ، تدابير المنزل ، ص ٢٥ - ٣١ .

(١٨) مسكويه ، تهذيب الاخلاق ، ص ١٣٠ .

(١٩) ابن رشد ، تلخيص الخطابة ، المقالة الثانية ، ص ١٤٨- ١٥٦، ١٦١- ١٦٣ .

(٢٠) مرسي ، فؤاد ، حول الازمة الاجتماعية في مصر ، مجلة اليقظة العربية ، السنة الثالثة ، القاهرة ، ١٩٨٧ ، ع ٧ ، ص ٩٥ - ١١١ .

(٢١) وادي ، خيرية عبد الصاحب : الفكر القومي في المغرب العربي ، بغداد، ١٩٨٢ ، ص ٤٥ - ٢٣٦ .

(٢٢) محمد حسين ، د . محمد ، الاسلام و الحضارة الغربية ، ط ٤ ، بيروت، ١٩٨١ ، ص ١٨ - ٧٨ .

(٢٣) فرح ، د . الياس ، تطور الفكر الماركسي ، ط ٦ ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص٣١ - ٢٧٩ .

(٢٤) محمد حسين ، اورد النص في كتابه الاسلام و الحضارة الغربية ، ص٢٧.

(٢٥) الطهطاوي ، رفاعة ، تلخيص الابريز ،الاعمال الكاملة لمحمد عمارة ، ص ١٨ و ١٢٢ .

(٢٦) الفكر التربوي العربي الحديث ، ص٢٠٦ .

(٢٧) الطهطاوي ، رفاعة : المرشد الامين للبنات و البنين ، طبعة تونس ، ص ٦٩ ، و الاعمال الكاملة اعلاه . راجع النص ايضا في الاسلام والحضارة الغربية ، ص ٣٦ .

(٢٨) النص من الفكر التربوي ، ص٢٠٧ .

(٢٩) المرشد الامين ، ص ٦٦ .

(٣٠) ايضا ، ص ١٤٨ .

(٣١) الاسلام و الحضارة الغربية ، ص٣٦ .

(٣٢) تحدث الشدياق عن المرأة و حقها في التعلم و الحياة المتساوية مع الرجل و ضرورة تثقيفها ، و هو في ذلك ، كان مسايرا لما رأه في فرنسا من حرية ، مقارنة بالواقع العربي . دون ان يلتفت الى التفاوت في الظروف الموضوعية ، للمجتمعين . راجع عنه ، فاخوري ، حنا ، تأريخ الادب العربي ، ط٦ ، بيروت ، ب ت ، ص ١٠٤٣ - ١٠٤٤ .

(٣٣) الفكر التربوي ، ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٣٤) عمارة ، د . محمد ، الاسلام و المرأة في رأي محمد عبده ، ط ٤ ، بيروت ١٩٨٥ ، ضمنه خلاصة موقف الشيخ ، كما رأها في الاعمال الكاملة التي نشرها عمارة في بيروت بأجزاء ، سنة ١٩٧٢ .

(٣٥) الاسلام و المرأة ، ص ١٤- ٢٠ ، ٤٧، ٦١ ، ١٩٢ .

(٣٦) ايضا ، ص ١٥ .

(٣٧) ايضا ، ص ١١ .

(٣٨) ايضا ، ص ١٦ .

(٣٩) ايضا ، ص ٢٢ و ٤٩ - ٧٠ .

(٤٠) النصوص من الاعمال الكاملة لمحمد عبده ، ٤ / ٢٢٥ و ٢٢٦ . راجع الاسلام و المرأة ، ص ١٥- ١٦ ، ٢٨ .

(٤١) الاعمال الكاملة ٤ / ٦٧٧ . الاسلام و المرأة ، ص ١٧ . و الى مثل ذلك ذهب قاسم امين في كتابه كلمات طبع القاهرة ، ١٩٠٨ ، ص ٣٤ -٣٦) .

(٤٢) ايضا ، ٤ / ٦٢٧ .

(٤٣) ايضا ٤ / ٦٥٤ ، و المرأة في الاسلام ، ص ١٨ .

(٤٤) راجعة في ٤ / ٦٣٠ - ٦٣٥ من الاعمال الكاملة .

(٤٥) المرأة في الاسلام ، ص ٣١ - ٧٦ و ص ١٠٧ - ١٤٣ .

(٤٦) الاعمال الكاملة ٤ / ٦٧٧ - ٦٧٨ و المرأة في الاسلام ، ص ١٤٥ .

(٤٧) المرأة في الاسلام ، ص ٦١ - ٧٠ .

(٤٨) قاسم امين ، الاعمال الكاملة ، نشر د. محمد عمارة بعدة اجزاء بيروت ، ١٩٧٦ .

(٤٩) الفكر التربوي ، ص ٢٠٨ ، راجع عنه ، حنا فاخوري ، تأريخ الادب العربي ، ص ١٠٥٣ - ١٠٥٤ .

(٥٠) الفكر التربوي ، ص ٢٠٥ .

(٥١) المصدر السابق ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٥٢) بأعتبار ان هذه الدعوة تنم عن مؤتمرات اجنبية دعا اليها انصار الحرية ، وابرزهم الذين ذكرهم لطفي السيد عندما قال : [انه اجتمع في جنيف بالشيخ محمد عبده و قاسم امين و سعد زغلول ، و أخذ يتلو على الشيخ فقرات من الكتاب (تحرير المرأة) وصفت بأنها تنم عن اسلوب الشيخ محمد عبده نفسه] (الفكر التربوي ، ص ٢٠٨ - ٢٠٩) . مما لم يُرضي المتشددين من الفقهاء .

(٥٣) الفكر التربوي ، ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

(٥٤) أمين ، قاسم ، كلمات ، القاهرة ، ١٩٠٨ ، ص ٣ ، ٢٣ ، ٣٤ - ٤٩ .

(٥٥) ايضا ، ص ٥٥ - ٥٦ .

(٥٦) ايضا ، ص ٤٨ - ٤٩ ، ص ٥٦ .

(٥٧) ايضا ، ص ٧ .

(٥٨) يقول قاسم امين : [أخبرني موظف في الازهر ، ثقة ، انه كلما اراد واحد ممن فسدت اخلاقه منهم (طلبة الازهر آنئذ) ان يسير وراء

شهوته ، ذهب الى احد البيوت العمومية ، و عقد على امرأة بحضور شاهدين ، على مهر قدره خمسة قروش ... فأذا قضى شهوته ، طلقها وخرج معتقدا انه يرئ من كل ذنب] (راجع كلمات ص ٣٤) .

(٥٩) كلمات ، ص ٨ .

(٦٠) ايضا ، ص ٢٥ - ٢٦ .

(٦١) ايضا ، ص ٣٤ ، ٣٧ .

(٦٢) ايضا ، ص ٣٦ .

(٦٣) يرى صاحب كتاب الاسلام و الحضارة الغربية [ان شؤون المرأة تطورت على يد قاسم امين ، تلميذ محمد عبده ، و لم يزل أبناء هذه المدرسة يرعون التطور حتى تجاوزوا ما حدده له محمد عبده و قاسم امين من حدود (ص ٧٨) و لم تكن دعوة حرية المرأة و مساواتها الا بتأثير الغرب و خدمة له (بأعتراف ، احد تلامذة) الشيخ ، الذي شجع قاسم امين على ترويج السفور المصري (ص ٩٩) و يؤكد ذلك سرور المستشرق سميث في دراسته عن تأريخ الاسلام المعاصر ، و في كون الدعوة التحررية التي هي عنده أساس الكثير من التطورات التي برزت في العالم الاسلامي المعاصر ، كالبرلمانية و نظم التعليم التحررية و التسامح (الديني) و تحرير المرأة ، (ص ١٦١ الهامش) .

(٦٤) تأريخ الادب العربي ، ص ١٠٧٨ - ١٠٧٩ .

(٦٥) كان العثمانيون أكثر سبقا من العرب في التماس بالغرب و محاولة اصلاح المجتمع ، و لا سيما وضع المرأة زمن سليم الثاني (ح ١٧٨٩ - ١٨٠٧م) مما مهد الطريق امام المصلحين اللاحقين ، في الوقت الذي كان رجال السلطة العثمانية يمنعون على العرب هذا الحق ، مسخرين لذلك العقليات المتخلفة ممن يرى المرأة من خلال عصر الحريم . راجع عن ذلك د. خالد زيادة ، أكتشاف التقدم العلمي ، دراسة

في المؤتمرات الاوربية على العثمانيين في القرن الثامن عشر ، بيروت ، ١٩٨١ .

(٦٦) راجع عن ذلك بالتفصيل ، الدراسة التي قام بها الدكتور قحطان عبد الرحمن الدوري و نشرت تحت عنوان ، السيد محمدرشيد رضا ، في مجلة دراسات عربية و أسلامية ، العدد ٣ ، السنة الثالثة ، بغداد ، ١٩٨٣ ، ص ٢٠٩ - ٣٠٤ ، و لا سيما ص ٢٨٩ .

(٦٧) الذي سبق و امتدحه رفاعة الطهطاوي في كتابه المرشد الامين للبنات و البنين ، ص ٦٩ . راجع ايضا الاسلام و الحضارة الغربية ، ص ٣٦ ، راجع هامش (٣٧) من هذه الدراسة .

(٦٨) هذا و غيره اورده الدكتور قحطان من فتاوى ، الشيخ محمد رشيد رضا ٦ / ٢٢٠٣ - ٢٢٠٤ و ٢٣٠٨ و المنشورة أصلا في مجلة المنار ، الجزء (٣٠) لسنة ١٩٢٩ ، ص ٥٠٦ - ٥٠٧ .

(٦٩) الاسلام و الحضارة الغربية ، ص ٢٦ . راجع عنه بالتفصيل : الفكر القومي العربي في المغرب العربي ، ص ٤٥ و ٤٨ و ١٣٠ و ٢٣٧ .

(٧٠) ورد النص في الفكر القومي ، ص ٤٢ .

(٧١) الاسلام و الحضارة الغربية ، ص ٣١ .

(٧٢) ايضا ، ص ٣٢ .

UNIVERSAL INTEGRATION VERSUS LOCAL PROVINCIALISM

SAAD FADHIL AL-HASANI ALI H. AHMED

Love, namely passionate love, is one of the major themes in Hardy's novels. But to assume that Hardy's treatment of love is, in the main, to emphasize the singularity of passion as the only means towards fulfillment is to misunderstand Hardy's prime object behind tackling love. By showing love as an overwhleming internal passion in men and women dooming to misfortune, Hardy intends to say that love must be based on the rational understanding of physical instinct. It is a means seeking fulfillment not only in passionate indulgence but also in the apprehension that love, as a vehicle leading to marriage, should be established on the union of body and spirit. It is a reconciliation of reason and passion. This is to make possible the perfect establishment of the smallest segment of society: family. In Far From The Madding Crowd, Oak's love for Bathsheba is built on the awareness that his joined to her not only by passionate involvement but also by social enterprise. We have only to think of Oak's foils in Bathsheba's love, Troy and Boldwood, to conclude how much Hardy is keen on proposing marriage as a physical as well as social bond : "Troy is drunk, satisfied, careless; Boldwood is infatuated, suicidal, careless; Oak is working on the ricks beside Bathsheba, working because he cares. And he cares not merely about the woman (Boldwood does that) but about the corn too." [1] But marriage seen in terms of physical attachment as well as social involvement does not obliterate the spiritual quality of that relationship. Perceiving that marriage is an attachment whose success is obtained by securing the social resources of the family, both sides are seen workingg hard to ensure the safety of the barn, that is, the safety of their material resource, on which the continuation of their relationship and the destiny of their lives depend.

A careful examination of Hardy's approaches to love discloses a humanitarian tendency towards glorifying the processes of the lives of his people, the simple, if not the underpriviledged rustics. He wants to show that country rustics are no less sensitive and passionate, and are no less reasonable and moderate that urban inhabitants. In 'The Dorsetshire Labourer', Hardy's most famous documented defence of rural people, he writes: " It is amongg such communities as these that happiness will find her last refuge on earth, since it is among them that a perfect insight into the conditions of existence will be longest postponed."[2] If love themes in Hardy's novels are derived from ballads and folktales, they are also originated in actual life:

Hardy's lovers are not, even in Under the Ggreenwood Tree , the timeless youths and maidens of pastoral tradition, but creatures firmly set in a crefully deliineated landscape, in a more or less specific period of time, and in a society which is involved in a process of change that is not always dramatic... but remains inexorable.[3]

Hardy, in fact, combines both the ballad element of love as reflected in his fellow people's folklore, and a treatment of that love in a world representative of a larger and more sophisticated world, almost a microcosm of every other world, rural and urban alike, in which love relationships between men and women are woven into the very web of life. Thus, Cecil finds in Hardy's romantic world a much rougher side: " in such a world, confined and elemental, passions grew to obsessiions."[4]

But Hardy is also concerned with another combination between the instinctive passions of the country people and the subsequent conclusion of the expression of that passion, within a framework of elemental nature, analoguous with the elemental passion of rural residents. Such an interrelation is integgrated within the processes of psychology. It is in order to give significance to the lives of his people that Hardy dwells on universality. It is an inclusive treatment in the sense that it applies to humanity in general, and in the sense that Hardy's depiction of his characters exxceeds the limits of locality and provinciality to the territories of the world in ggeneral. In addition, it is a humanitarian vein, an attempt to link between the local and the universal in order to make country poeple representatives of humanity as a whole, for "the society which Hardy presents in his novels is not feudal, not rigid caste system which denies all mobility, but a developing capitalist society, in which it is possible for families and individuals either to sink or to rise from their original status and in which accident plays a large part."[5] Thus, Hardy's Wessex bears the essential affinities which associate the simple with the complex and the underpriviledged with the sophisticated: " The relatively slow and old-fashioned nature of rural Wessex, as compared with the contemporary industrial centers where the same thingg was happening much faster, should not confuse our understanding of this process."[6] It is a humanitarian attempt not of a social reformer whose means are rigid statistics and theories, but of an artist whose means are feelings and emotions as gathered in human beings, and as centered round one major theme: love.

Psychologgically speaking, Hardy is mainly concerned with man's behaviour inside society. It is a motif integrated within the different modes of chracterization. To start with, J.C. Flugel offers a suitable introduction: "

the problem of rebuilding our tottering society upon a sounder basis is to some extent a moral problem, in the sense that its solution depends upon an appeal to the moral impulses of men."[7] Similarly, Hardy's direction in depictingg his characters is digging for the basic impulses of man's behaviour. In Far From the Madding Crowd, Bathsheba is depicted as an independent woman in the sense that she is educated enough to be higher in self-esteem than native dwellers, a fact which immensely contributes to oddity, impulsiveness, and even repulsiveness in her behaviour, and that she has neither parents nor a social position, two additional factors whose consequences are freedom in behaviour, uncertainity in action, and sadness in responses. Her rejection of Oak's proposal clearly illustrates how personally independent she is: " Mr. Oak," she said, "you are better off than I. I have hardly a penny in the world... I am staying with my aunt for the bare sustenance. I am better educated than you...and I don't love you bit."(FMC, ch. IV). Later on when she comes to her fortune and becomes economically independent, she starts lookingg down on Gabrielnot only because of her superior education but also because of her better social status. She starts thinking of an equal relationship with another man, Boldwood, a squire and a knowledgeable man, whose personality is violently shaken when Bethsheba teases him with the valentine. Commenting on Bethsheba's behaviour as far as the valentine incident is concerned, John Locas indicates that "the problem of finding herself, deciding who and what she is, tugs in different directions. And so is the case of valentine."[8] And despite the fact that social position enforces Bethsheba to be suprior to Oak, "it's part of her restlessness, her impulsiveness and of her desire for a full equal relationship"[9] that she finds in Boldwood an outlet.

But Bethsheba's affair with Boldwood lasts for a short time. She immediately discovers that he is conventional in his viewpoint concerningg maritial life. He wants a woman to keep at home: "You shall never hhave so much as to look out of doors at haymaking time, or to think of weather in the harvest."(FMC, ch. XIX). Boldwood's conventionality does not suit Bethsheba, the wilful and independent, for she wants to work herself, and to take care of her barn in an equal manner not only to Boldwood but to any other man in his status. This is why she rejects him.

Now comes Troy's role. At the beginning of the novel, Bethsheba "observed herself as a fair product of Nature in the feminine kind, her thoughts seeming to glide into far off thouggh likely dramas in which men would play a part".(FMC, Ch. I) Bethsheba is romantic. She aspires to play "dramas" with "men", almost love adventures whose success possibility is

"far-off." In fact, she does not know what she wants, nor how to get through the dilemma of choosing an appropriate husband. Lucas wonders abouut Bethsheba's nature, and asks: "is she vain, shallow, coquettish; or is she trying to recognize, account for herself ? " [10] Bethsheba, essentially, bears all these qualities, and her inability to make up her mind is associated with her inability to form an adequate picture of herself, inadequacy which, eventually, leads to her inability to form adequate pictures of others. When Troy first appears, he seems to her "brilliant in brass and scarlet...his sudden appearance was to darkness what the sound of a trumpet is to silence...The contrast of this revelation with heranticipations of some sinister figure in somber garb was so great that it hasd upon her the effect of a fairy transformation"(FMC, Ch. XXIV). Troy is "brilliant" only to Bethsheba's mind, a mind fully overwhelmed by a passion to yield to a superior male, or according to Carpenter's words, a mind expresses "Bathsheba's inclination towards the flamboyant."[11] Troy's inadequate shape in Bethsheba's mind turns him to a vision. Bethsheba has, actually, fallen in love with a vision of a man whose transparency makes him roaming like a shadow before Bethsheba's eyes, and makes Bethsheba herself vulnerable to easy deception. Later on, when Troy leads her to misfortune, the vision disappears and there remains nothingg but Troy, the careless and the gambler.

Psychologgical processes have, thus, taken Bethsheba along three experiences, through each one of them she comes to the recoggnition that her inability to make the right choice increases as long as her independence combines vanity and ignorance. She needs a man with whom she can still maintain independence, but this time, a kind of independence associated not with actual estimatiion. The man is Gabriel Oak, with whom Bethsheba's relationship "becomes anbti-romantic."[12] They have, finally, come to recognize each other "first by knowingg the roughterside of each other's character and not the best till further on" (FMC,Ch. LVII).

Psychological implications interfere once again in The Return of the Native to give shape to the kind or relationships in the novel. Eustacia's dilemma is not inseparable from Bathesheba's ordeal. Both aim at a dream: a man who bears the exotic qualities of medieval knight, independent enough by courage, gallantry, and passion to love them to madness, and dependent enough by urgent needs of love and affectation to achieve to them whatever they aspire to. Like Bethsheba, Eustacia is indeppendent. She distastes the conventional and the available. When Wildeve tells her that he has retracted his offer to get married to Thomasin, she starts contemplating

her new situation after the absence of her rival in Wildeve's love, and discovers how commonplace his love has become:

The sentiment which lurks more or less in all animate nature...that of not desiring the undesired by others...was lively as a passion in the supersubtle, epicurean heart of Eustacia. Her social superiority over him, which hitherto had scarcely ever impressed her, became unpleasantly insistent, and for the first time she felt that she had stooped in loving him(RN ,bk I,ch.XI) Indeed, "social superiority" is one aspect of Eustacia's character, whose decision and contempt of others are the sources of her both strength and weakness . But another kind of superiority, passionate superiority, can also be regarded as a feature whose dominance inside Eustacia's nuture is a landmark of a mixture of extreme vanity and power. Eustacia's sence of Thomasin's rivalry does not spring from her jealousy as much as from her superiority over Thomasin, the timid and malvolent girl: "what was the man worth whom a woman inferior to herself did not value?"(RN, bk. I,ch. XI). Eustacia, in fact, seems saying that even Thomasin, her inferior in personal independence, is no longger coveting Wildeve. She hates and despises the very and easy accessibility of Wildeve.

Eustacia is allso romantic.Her imagination feeds on the inaccessible, Clym and Paris together. These two wishes represent a kind of personal extremity, almost an obsession. Writing about wishes as originated in human nature, Flugel emphasizes some points: "they are accompanied by more lively feelings and emotions, especially those of a kind which seem to possess some bodily resonance."[13] He also adds that wishes "impel more vigorously to action.There is in fact usually a desire to translate them into action at once,"[14] and he finally concludes that "they appeal to the imagination."[15] From a psychological point of view, these points are applicable to Eustacia. Highly passionate, she hotly aspires "to translate" her passions "into action at once". Immediately after rejecting Wildeve, she starts planning to gget married to Clym, thinking misleadingly that Clym can be that romantic hero who can achieve whatever she aspires to: leaving Egdon Heath. But the achievement of this dream is impossible because Clym is not that romantic hero, and can never be that one. This is why his image in Eustacia's eyes is visionary and Eustacia herself is living in fancy. Before Clym's return, Eustacia has overloaded her mind with promising aspirations about a man in whom all of those aspirations are already missing. Clym's vision in Eustacia's mind is so integrated that even before she sees him she dreams of him as a helmeted knight dancing with her and is ready to cross with her the boundaries of the actual life on the Heath to another spot, Paris

or Budmouth, where fashionable projections are possible. The dream is indicative of Eustacia's romantic imagination, which finds a similar echo in romantic mates, mates whose actual incarnation is impossible. Therefore, when Clym's picture in Eustacia's mind is distorted, Eustacia turns again to her much inferior Wildeve whose inheritance, by now, has provided an additional allurement.

In discussing the love psychology of Eustacia's character, a differentiation must be made between what Eustacia thinks she wants and she can actually own. Eustacia's central issue is leaving Egdon Heath as much as finding the man with whom, but never by whom, achieving her dream becomes possible. She has thought for a moment that Wildeve can be that man, because in all Egdon Heath there is no other man who can substantiate what she has fixed in her mind about her visionary man other than Wildeve. But when Clym returns she starts applying her models of what that man should be to him. The result is catastrophic, for Eustacia's dream is diminished not by Clym's rejection of the whole idea of quitting Egdon Heath as much as by Clym's social degradation and gradual blindness: "to hear him sing and not at all rebel aggainst an occupation which, however satisfying to himself, was degrading to her , as an educated lady-wife, wounded her through"(RN bk IV,ch. II), and again, "it was bitterly plain to Eustacia that he did not care much about social failure; and the proud fair woman bowed her head and wept in sick despair at though of blasting effect upon her own life of that mood and condition in him ."(RN, bk. IV,ch. II). It is significant that after contemplating his pitiful appearance , Eustacia goes to him in the field, while he is cutting furze, only to hear him saying directly to her " Eustacia ! I did not see you, though I noticed something moving" (RN, bk. IV,ch.II). The symbolic implication is clear: Clym's blindness is an indication of his ignorance of the impossibility of achieving his ideal aims, and of his iddifference to his wife who is turned in his mind to only "something moving". It is an extreme opposition to Eustacia, the passionate woman, to whom love is " the one cordial that could drive away the eating loneliness of her days" (RN, bk I.,ch. VII) ,and a woman whose dreams of a man fulfilling her aspired aims are drastically thwarted. Eustacia's humiliation is so great and overwhelming that putting an end to her life, that is, committing suicide seems inevitable.

Women in Hardy's novels are more vulnerable to their whims than men are. Bathsheba's coquetry and Eustacia's neurosis are indications of how women in Hardy's novels are closer to their instincts and passions than men are. The roleof reason is less played in their drama than their passions, and

their instinctive behaviour is more enacted in the field of primitive feeling than the filed of sophisticated intellect. Bathsheba' uncertainity and Eustacia's oddity are issues due to the dominance in the feelings of a sort of destructive passion, contributing primarily to give both shape and form to the own destiny. Does that mean that women are responsible for the manifestation of their own lots ? Or does it mean that fate creates women passionate and instinctive that they become themselves potent instruments in the hands of that fate and in the subsequent malignity of fatalism ? The answer lies in Hardy's psychological treatment of love in Tess of the d'Urbervilles.

An aspect ofpassion is love.Therefore, it is natural for Hardy's women,and Tess isamong them, whose vent for self-expression is passion, to find in passionate love the incarnation of their humanity. In their endless search for love, they are often turned into passive agents of fate as an external power. Cecil affirms that "women's passiveness and frailty make her an especially poignant illustration of that frailty, that independence of fate, which is the outstanding characteristic of the human lot. Fate,it is true, often employs a human instrument to encompass that tragedies which overtakes Hardy's heroines."[16] Cecil also indicates that love itself is a vehicle of fate: "love, so far from being a benevolent spirit, consoling and helping man in his struggle with the inhuman forces controlling human existence,is itself amanifestation of these forces."[17] This is true in so far as love employs the different vehicles of fatalism: " It is precisely in the matter of love that such manifestations of the will as law, money, class,trade and education have maximum impact," [18] but it is also true that man's endless serach for love is his infinite expression of his humanity. It is an expression of his relentless struggle against all kinds of limitations despite his knowledge that his struggle is predetermined to failure. Man's heroism lies in such persistence which stems from an awareness of that kind of struggle and of its possible conclusions, but never from any ignorance of the deterministic values which admit that such a struggle is of no avail since the law of cause and effect is in operation.

Commenting on Clym's aspiration as the sole cause of his tragedy, Carpenter suggests that Clym's tragedy could have been avoided had he been content with that quality of experience originally "possessed by the Timothy Fairways and Granfer Cantles, whose existence is functionally related to the world in which they live."[19] Timothy Fairway and Granfer Cantle are rustics , and their range of experience is limited to their wisdom of peasantry fatalism. Dorothy Van Ghent finds in the rustics' fatalism "an

instinctive adaptation as accomodating to bad as to good weather, to misfortune as to luck, to birth as to death, a subjective economy by which emotion is subdued to the falling out of event and the destructiveness of resistence is avoided."[20] Their passivity allows no struggle or persistence of the kind aspired to by the principal chracters. This is why the tragedy is not identified with them since their submissiveness brings no calamity upon them. But those individuals who aspire to change this system of life towards realizing the kind of power responsible for "bad" and "good weather", "misfortune" and "luck", and "birth" and "death" are momentarily cut down in vengeance by the same ruthless power, and, thus, order is regained. One of those "individuals" who aims at change in not rebellion is Tess, Hardy's most effective heroine.

Bathsheba's and Eustacia's non-visionary views of their lovers are reversed with Tess, who spends the entirety of her life trying to rid herself of the visions fixed for her by others, and attempting to establish herself as an undebauched woman. Tess of the d'Urbervilles delineates " a girl wo tries to discover, and live into,a secure identity, a sense of self that shan't be fixed for her, shan't deny her own sense of integrity...Almost from the first Tess an identity pinned to her."[21] From the outset Tess is portryed as a very sensitive girl whose sense of selfhood matches pride. In the psychology of her love relationship with Angel, one can easily trace Tess's awareness of herself and her surroundings. Early at the beginning, during the May Day dance, Tess feels injured when Angel does not choose her as his dancing partner: " As he fell out of the dancehis eyes lighted on Tess Durbeyfield, whose own large orbs wore, to tell the truth, the faintest aspect of reproach that he had not chosen her."(TU ch. II) Shortly after, while angel is on his way to catch up his brothers, he mounts a hillside and turns back to have a look on the dancing girls who are still dancing except one of them whose "white shape stood apart by the hedge alone. From her poisition he knew it to be the pretty maiden with whom he had not danced. Trifling as the matter was, he yet instinctively felt that she was hurt by his oversight" (TU ,ch.II) Why does Tess feel injured? and why does she stand apart instead of encircling herself in the dancing group once again? She even goes further in contemplating a possible future relationship with Angel: She had no spirit to dance again for along time,though she might have had plenty of partners; but ah ! they did not speak so nicely as the strange young man had done" (TU , ch. III).Hardy,in fact, is very keen on bringing into being the mental development of his heroine as far as her relationship with Angel is concerned. The situation gives a clear account of Tess's strong sense of the self, and of her over-estimation of herself as an individual clearly

distinguished from her counterparts. Afetr her seduction by Alec, she rejects the idea of getting married to him even if it means exposing her to dishonour. Instead, she tells him with determination:

Perhaps, of all things , a lie on this thing would do the most good to me now, but I have honour enough left, little as 'tis, no to tell that lie. If I did love you I may have the best of causes for letting you know it. But I don't (TU , ch. XII) It shows how Tess is true to herself before being true to others : "Tess's sense of personal integrity...appearing from time to time almost as arroggance...exxplains her refusal to stay with d'Urberville, and her unwillingness to use her pregnancy to get him to marry her."[22] She rejects what Alec, after seducing her, has come to think of her as a mistress to toy with and finally to dismiss. Her emphasis on selfhood does not spring from pride as much as from her awareness of the necessity of abolishing others' ready-made visions of her whether right or wrong. Hardy himself admits that for Angel, Tess " was no longer the milkmaid, but a visionary essence of a woman" (TU ,ch. XX) When Anggel starts idealizing her by calling her Artemis and . Demeter, she stops him with affirmation to say: " 'Call me Tess ." (TU , ch. XX), and again during their marriagge ceremony, she whispers to herself: " She you love is not my real self, but one in my image; the one I might have been ." (TU , ch. XXXIII) Thus, what Hardy initiates as Bathsheba's and Eustacia 's flirtatious natures and overloaded visions of others ends with Tess's sincerity and straightforwardness, for "what really engages his interest is separation from self,and the ways in which Tess's sense is denied her."[23]

Discussing Tess's nature, Butler finds parallels between Tess and Desdemona: " the tragic resignation of Desdemona to her death, for instance and her great devotion to her husband, find parallel in Tess's story."[24] There is no resignation in Tess's love story. On the contrary, Tess rebels against the fatality of her fellow people, and among them her mother. Van Ghent finds that Tess's tragedy turns on a secret revealed, that is, on the substitution in Tess of an individualizing morality for the folk instict of cocealment and anonymity."[25] Tess's mother represents that "folk" tradition which admits all occurrences with strict fatalisim. She comments on Tess's pregnancy saying , " 'Tis nater, after all , and what do please God!" (TU , ch. XII) . But Tess is different. While she is pregnant and suffers painfully her mother's rebuking words for her inability to get married to Alec, she says emphatically, "perhaps any woman would do except me" (TU, ch. XII) Indeed. Tess is distinguished from "any woman" in any equal situation. Perhaps that would justify her feeling of mild arrogance during the

May-day dance at the beginning of the novel, and would also justify her subsequent behaviour with Angel.

In the love relationship between Tess and Angel, the reader ismade aware ,during the lovers'courting time at Talbothays,that their relationship is impossible. While Angel is living in the illusion of what he conceives of innocence and chastity in Tess's personality, Tess herself realizes "that in the eyes of the world she is a fallen woman."(26) Angel has,thus ,a wrong vision of Tess, whilw Tess has a right vision not only of Angel but of all the poeple around her .As a heroine uncorrupted by sophisticated opinions concerning social prejudice , and deeply rooted in instinctive behaviour, Tess is opposed to Batheshaba and Eustacia in the sense that she is always marked by mental calrity which substantiates her awareness that she is eventually doomed to failure, a matter which makes her struggle heroic and her behaviour responsible : the whole relentless pressure of the novel is towards showing how again and again she has to struggle free of various "fixed" images of purity and womanhood,how she desparately tries not to be "owned", "possessed", how the men in the novel ---Alec, Dairyman Crick, Angel, Farmer Gropy--- do in different ways "own" her and finally they defeat her struggles.(27)

Tess's "mental clarity" lies in the fact that till the end her sense of herself as a chaste woman is never diminished despite her successive disappointing experiences starting from her family, passing by Alec, and finally ending with Angel: "she has no words to compete with the men's sense of her,only a determination to live ---if she possibly can, from some center, some awareness of herself as a pure woman, purely a woman."(28) It is with this kind of 'determination", combined with a strong sense of responsibility, rejecting to initiate marital life under false preteness, that Tess meets Angel when she insists on telling him about the secret of her seduction on their wedding night. Tess's true character where the combination of fidelity and simplicity is best manifested in her devotion to her husband, is the essence with which she opposes her parents' folk tradition of submissiveness as represented in her mother's advice: "Many a woman ---some of the highest in the Land --- have a trouble in their time; and why should you Trumpet yours when others do not trumpet theirs ? No girl would be such a Fool, especially as it is so long ago, and your fault at all."(TU , ch.XXXI) And it is with her moral obligation towards her self-esteem as an integrate woman whose dignity forbids her from begging pity from anyone,even her husband, that she does not object to Angel's decision to leave her : If Tess had been artful, had she made a scene, fainted,wept hysterically,in that lonely lance,

not withstanding the fury of fastidiousness with which she was possessed, he wouldprobably not have withstood her. But her mood of long suffering made his way easy for him, and she herself was his best advocate. Pride,too, entered into her submission-- which perhaps was a symptom of the reckless acquiescence in chance too apparent in the whole d'Urberville family (TU , ch. XXXVII).

The psychologicallprocesses of Tess's character have, thus, proved to be essential in the introduction of a pure woman defeated by the opposition between her natural human feelings and the dogmatic social institutions as represented by her lovers' ready-made visions of her character. Tess's awareness of such a clash, Hardy is meant to say, is an indication of her ability of action, and of her capacity of forebearance, two features whose availability in Tess's character refutes all changes of passivity.

There remains one stage in Hardy's development as far as woman is concerned: the intellectual woman. Tess's instinctive awareness is transformed in Jude the Obscure into the intellectual awareness of Sue Bridehead. She represents that type of woman whose appearance late in the nineteenth century and early in the twentieth century has caused confusion inside society in general, in women specifically. Irving Howe indicates that "in the last third of nineteenth century, the situation of women changed radically: from subordinate domesticity and Victorian repression to the first signs of emancipation, leading often enough to the poignant bewilderments of a Sue Bridehead."[29] She suffers from "poignant bewilderments" because of her relation to the newly rising group of women whose demands for emancipation have not yet been fully established by those women themselves, being the early and the first innovators of experiencing such liberal movements,and because their society itself has not yet been ready to welcome warmly those pioneering rights. Sue herself "is the major anticipation in the English novel of that profoundly affecting and troublesome creature: the modern girl."[30] That is why it isnatural for Sue as for any other woman of her group to suffer immensely under the great burden of their ambivalent society, whose double standards push these women to commit mistakes because they feel they are uprooted and have no identity. However, the serach for a genuine identity in a society alienated bu the rising sophistication of disbelief and doubt, and corrupted by dogmatism and materialism is a commonplace feature of the age, and applicable of all men and women in general. This is why Jude the Obscure offers the concept of alienation as lived and suffered by both the hero and the heroine:

"no other characters in Hardy's novels are quite so alienated both from society and from themselves as Jude Fawley and Sue Bridehead."(31)

Sue, according to John Lucas, "is a woman in pursuit of her own identity , her sense of self, her encountering various kinds of self-separation."(32) If Batheshaba and Eustacia have wrong visions of others , and if Tess's fate is predestined by others' misguided visions of her , Sue seems struggling to find a vision of herself. Therefore, she is entrapped in inconsistency since her mind is divided between finding an "identity" and between finding an integrate status in a hostile society. Robert B. Heilman indicates that Hardy "has given a sharp image of inconsistency in Sue, for whatever the paradoxical link between her manifestations of spirit, she nevertheless appears as the special outsider on the one hand and as quite conventional on the other."(33) She denies Jude any normal relationship with her, that is, getting married to her because marriage, as she perceives, is a conventional institution--" 'a sordid contact'" (JO, part fourth, ch. II) -- which she despises much, but in the meantime she invites him again under the pressure of that same conventionality when she feels jealous of Arabella. She even goes further in her conventionality to think if Arabella is prettier than she is: " Prettier than I am, no doubt !" (JO , part third, ch. VI). Psychologically speaking, Sue's jealousy is a very important turning-point in the love relationship between Sue and Jude. D. H. Lawrence finds that Sue "was cruelly anguished with jealousy of Arabella. It was only this , this knowledge that Jude wanted Arabella, which made Sue give him access toher own body." (34) It is,in fact, the first blow to Sue's ideal awareness ofliving with a man both spiritually and emotionally without a physical conact, a point on which Lawrence comments again, suggesting that Sue's problem is " to find a man whose vitality could infuse her and make her live, and who would not , at the same time, demand of her return."(35) Ironically enough that man with whom Sue is supposed to find a vent for her intellectual predicament is Jude, whose fatal weakness is passionate vitality which makes him, according to Carpenter, "do nothing else but veer about in erratic courses as circumstances call upon one and then another of his basic impulses."(36)

Back to Sue, once she has given herself to Jude, then she would always be ready to give voluntarily, espcially after becoming amother. It is the same idea of conventionality, an idea which has been very disgusting to Sue at the beginning, that she now is subjected to. To prove herself aperfect woman, she must become a mother and have children: "she lived chiefly in her children. They were her guarantee as a physical woman, the being to which she now laid claim. She had foresaken the idea of an independent